﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾

« ذلك » إشارة إلى ما تقدم ، وهو إرسال الرسل مبلغين عن الله ؛ حتى لا يكون لأحد حُجة بعد الرسل ، وقد أقروا بأن الله أرسل إليهم رسلاً ، وشهدوا على أنفسهم ، وماداموا قد أقرّوا على أنفسهم بأن الله أرسل لهم رسلاً وشهدوا على أنفسهم بذلك ، إذن فهذا إقرار جديد بأن الله لم يكن مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يعاقب على جُرم ،وقبل أن يجرِّم ينزل النص بواسطة الرسل . أى أن الله لا يهلكهم بسبب ظلم وقع منهم إلا بعد ذلك البلاغ .

« وأهلها غافلون » ، و« الغفلة » ضد اليقظة ، فاليقظة هى تنبّه الذهن الدائمَ ،و« الغفلة » أن تغيب بعض الحقائق عن الذهن ، ومعنى أن ربنا لا يهلك القرى بظلم وأهلها غافلون أى غير يقظين ؛ فلو أنهم كانوا يقظين ومتنبهين لما احتاجوا إلى الرسل ؛ لأن الله عندما خلق الخلق أرسل آدم إلى ذريته ، وكان المفروض كما يلقن الآباء الأبناء وسائل حياتهم أن يلقنوهم مع ذلك قيم دينهم . فكما أن الآباء يعلمون ذريتهم وسائل حياتهم ، ثم ينقلونها ويزيدون عليها بابتكاراتهم ، كان من الواجب على الآباء أن يقوموا بهذا العمل بالنسبة للقيم فتعيش القيم فى الناس كما عاشت وسائل حياتهم .

ولماذا ـ إذن ـ عاشت وسائل حياتهم وتوارثوها وزادوا عليها أشياء ؟! لأن زاوية الدين هى التى يغفل الناس عنها ، بسبب أنها تقيد حركتهم فى « افعل » و« لا تفعل » ، ولكنهم يريدون الترف فى وسائل حياتهم . لماذا إذن أيها الإنسان تحرص على الترقى فى ترف الحياة ولا تحرص على الترقى فى القيم ؟ . لقد كنت ـ على سبيل المثال ـ تشرب من الماء أو النبع بيدك ثم صنعت كوباً لتشرب منه ، ونقيت الماء من الشوائب ونقلته من المنابع فى صهاريج . أنت ترفه حياتك المادية والمعيشية فأين إذن الاهتمام بقيم الدين ؟!!

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

ولو كانوا متيقظين لكان كل أب قد علم ابنه ما ورثه من آبائه من القيم ، وعلى الرغم من ذلك رحم الحق سبحانه وتعالى هذه الغفلة ، وكرّر التنبيه بواسطة الرسل . وكلما انطمست معالم القيم التى يحملها المنهج فهو ـ جل وعلا ـ يرسل رسولاً رحمة منه وفضلاً وعدالة ، ولم يكن يهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ، والغفلة ضد اليقظة .

إذن لو كانوا متيقظين لما كانت هناك ضرورة للرسل ؛ لأن الآباء كانوا سينقلون لأبنائهم القيم كما ينقلون إليهم وسائل حياتهم ، وهذا الأمر مستمر معنا حتى الآن ؛ إن الأب ـ مثلاً ـ إن غاب ابنه عن المدرسة يوماً يلوم الابن ، وإن أهمل فى دروسه أو رسب فهو يعاقب الابن ، وهذه هى الغيرة على المستقبل المادى للابن ، ولا غيرة على أدائه لفروض الدين ، لماذا ؟ . إن الناس لو عنوا بمسائل قيمهم كما يعنون دائماً بمسائل حياتهم لاستقام منهج الخير فى الناس وأصبح أمراً رتيباً .

وعرفنا أن الغفلة ضدها اليقظة ، كما أن السهو ضده التذكر ، والغروب ضده الشروق ، والغياب ضده الحضور .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

« ولكلٍّ » ، وجاءت بالتنوين أي لكلٍّ من الإنس والجن درجات مما عملوا ، فكأن الأعمال تتفاوت ؛ فقد تكون فى ظاهرها قوالب متحدة ، لكن التفاوت إنما ينشأ بكثرة العمل ، أو بإخلاص المقارف للعمل والمكتسب والفاعل له ، فهناك من يخلص بكل طاقته ، وهناك من يؤدى عمله بنصف إخلاص ، ومسألة الإخلاص هذه لا تحددها لوائح ولا قوانين إنما يحددها الحق سبحانه وتعالى ، ولذلك يقول محمد صلى الله عليه وسلم مبلغاً عن رب العزة هذا الحديث القدسى :

« الإخلاصُ سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى »[1] .

إذن فمقاييس الإخلاص لا يعرفها إلا ربنا سبحانه وتعالى ، وعلى مقدار ذلك تكون الدرجات . وتكون الدرجات على مقدار ما يزيده العبد من جنس ما فرضه الله عليه ؛ فالحق قد فرض صلوات خمساً ، فيزيد العبد عشر ركعات فى الليلة مثلاً . والله قد فرض الصيام شهراً ، فيصوم العبد يومى الاثنين والخميس .

والذى يقف عند ما فرض الله يجازيه الله على إخلاصه فى أداء ما عليه ، وحينها سأل أعرابى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن موقف الذى لا يؤدى إلا الفروض فقط ، قال له : (أفلح إن صدق)[2] ، فالذى يزيد عما فرض الله من جنس ما فرض الله أشد فلاحاً . ولا يصل الإنسان إلى المرتبة التى هى أشد فلاحاً إلا إذا كان فى درجة أعلى ، وكلمة « درجات » تفيد العُلوّ ، وكلمة « دركات » تفيد الهبوط ،والحق لا يغفل عن ظاهر وباطن كل عمل لأى عبد .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ
وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم
مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

وهنا يحنننا الله سبحانه وتعالى إلى عبادته ، وإلى تكاليفه ؛ يحنننا إلى فضيلة الطاعة ، وكل ذلك لمصلحتنا وهذا مطلق الربوبية الرحيمة ، فيحسن لنا الجزاء ، ويفخم لنا فيه لنعمل لصالحنا نحن ؛ لأن كل أعمالنا ـ كما قلنا ـ لا تزيد فى ملك الله قدر جناح بعوضة ، وكل معصياتنا لا تنتقص من ملك الله قدر جناح بعوضة ؛ لأن الله بكل صفات الكمال خلقنا ، ولم نزده نحن شيئاً . لقد أوجد الدنيا من عدم ،

(١) رواه أبوالقاسم القشيرى فى الرسالة من حديث على بن أبى طالب .
(٢) رواه النسائى والبيهقى فى السنن الكبرى .

وفرق بين الصفة القائمة بذات الله ، وإيجاد متعلق الصفة . فالله خالق ؛ والله رحمن ، والله رحيم ، والله قهار ، وسبحانه رحمن ورحيم وقهاروخالق حتى قبل أن يبرز ويظهر مايخلقه ؛ لأنه بصفة الخالق فيه خلق ، وهو رزاق قبل أن يخلق المرزوق ، فالصفة موجودة فيه قائمة به ، وبهذه الصفة رزق ، وبوجود هذه الصفات فيه يقول للشيء كن فيكون ، وله هذا الكون كله ، وهو غنى عن العباد وله كل الملك ، وكذلك خلق التوبة ، والرسول ﷺ يقول :

«لَلَّهُ أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيرة وقد أضله فى أرض فلاة»[1] .

﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣) ﴾ [سورة الأنعام]

إذن فالخلق مستمر الإيجاد من العدميات وهو دليل على أن صفة الخالقية موجودة .

وما آدم فى منطق العقل واحد ولكنه عند القياس أو ادم

فالكون كله من أول آدم موجود ، وكل الكون المسخر لآدم كخليفة فى الأرض خاضع لله ، فإن شاء اذهب الخلق وأتى بخلق جديد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (١٣٤) ﴾

والحق سبحانه وتعالى لأنه لا إله إلا هو ، إذا وعد فلا بد أن يتحقق وعده ، وإذا أوعد فلابد أن يأتى وعيده . والوعد إذا أطلق فهو فى الخير ، والوعيد يكون فى الشر . والذى يخلف الوعد أو الوعيد من الخلق فهذا أمر متوقع لأنه من الأغيار ، فيتغير رأيه

(١) رواه البخارى فى الدعوات ، ومسلم فى التوبة ، والترمذى فى الدعوات .
سقط على بعيره : أي صادفه وعثر عليه من غير قصد فظفر به .

فلم يعد أهلاً لهذا الوعد ؛ لأنه ربما يكون قد وعد بشيء كان يظن أنه في مكنته ، وبعد ذلك خرج عن مكنته ، فليس له سيطرة على الأشياء ، لكن إذا كان من وعد قادراً ، ولا يوجد إله آخر يناقضه فيما وعد أو أوعد به فلا بد أن يتحقق الوعد أو يأتي الوعيد . . ولذلك حينما يحكم الله حكماً فالمؤمن يأخذ هذا الحكم قضية مسلمة ؛ لأنه لا إله مع الله سيغير الحكم ، وسبحانه ليس من الأغيار ، والمثال أنه قال :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾ [سورة المسد]

وهذا وعيد في أمر لهم فيه اختيار ، ومع ذلك لم يسلموا . وجاء بعدها مايؤكد لكل مسلم : إياك أن تأخذ هذه القضية مأخذ الشك ، وتقول : قد يتوب أبو لهب هذا وزوجه ويسلمان ، ألم تتب هند؟! ألم يسلم أبو سفيان؟! . لكنه سبحانه عالم بمايصير إليه اختيار أبي لهب واختيار زوجه ، وإن كان كل منهما مختاراً ، ولا يوجد إله سواه ليغير الأمر عما قال .

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ . . ﴾ [سورة الأخلاص]

أي لايوجد إله أخر ليعدل هذا الأمر .

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝١٣٤ ﴾ [سورة الأنعام]

قد يظن بعض الناس أن الله قد يأتي بما وعد به لكنهم قد يهربون منه ، ولكن ليس الأمر كما يظنون ؛ فالوعد آت وأنتم لاتستطيعون الهرب منه ، ولا أحد بقادر على أن يمنع الله عن تحقيق ماوعد أو أوعد ، ولن تفروا من وعده أو وعيده ، ولن تغلبوا الله أو تفوتوه وتعجزوه ؛ فالله غالب على أمره .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

والقوم هم الجماعة ،وعادة يطلق على الرجال لأنهم أهل القيام للمهمات ؛ لأن الشأن والأصل فى المرأة الستر والبيتوتة والاستقرار فى البيت للقيام على أمره ورعايته . وحين تقرأ القرآن تجد كلمة « قوم » وتفهم أن المقصود منها الجماعة التى تجمعهم رابطة ، وأنها للرجال خاصة ، والمثال هو قول الحق :

﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

ومادام قد جاء بمقابل « قوم » : « ولا نساء » ، فـ « قوم » هذه للرجال ومأخوذ منها « القيام للمهمات » ، ومأخوذ منها « القوامة » . ولذلك الشاعر يقول :

ولا أدرى ولست أخال أدرى   أقوم آل حصن أم نساء

يعنى أرجال أم نساء .

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾

(من الآية ١٣٥ سورة الأنعام)

و « المكان » هو الحيز الذى يأخذه جسم الإنسان ؛ فكل كائن له مكان ، إن وقف له مكان ، إن قعد له مكان ، والمكان هو المملوك والمخصص لك من الأرض ، فحين تقف فى مكان لا يقدر آخر أن يقف فيه وأنت واقف ، بل يجب أن يزحزحك عنه ، وحين تزحزح من هو واقف ، فهو يروح إلى مكان ثانٍ ، ويمتنع التداخل بين اثنين فى حيز لا يسع إلا واحداً ،وهذا أمر فطرى ؛ فتجد الولد الصغير الذى لم يدرك أى شىء ويقدر أن يقف فقط ، ثم يريد أن يقعد على الكرسى الذى تجلس عليه

أخته أو أخوه ، فقبل أن يقعد على الكرسى يشد من يجلس عليه ؛ لأنه يعرف بالفطرة أن اثنين لا يوجدان فى حيز واحد .

وترى ذلك أيضاً فى غير الجرم المرئى ، فأنت حين تأتى بقارورة وتضعها فى ماء لتمتلىء تسمع صوت الهواء الخارج منها فى بقبقة ؛ لأن الماء لا يمكن أن يدخل إلا إن خرج الهواء ، ولأن المياه أكثف فهى تضغط ليخرج الهواء ، وهذا ما يؤكد عدم التداخل . أى لا يوجد شيئان اثنان فى حيز واحد . ومكانتك هى الموقع الذى تستولى عليه ، ولذلك حتى فى الجيوش وفى الحرب توضع الخطط من أسلحة مختلفة ، لتستولى على الأماكن .

« اعملوا على مكانتكم » هو قول موجه إلى الجماعة الذين عارضوا النبوة ووقفوا منها هذه المواقف ، فيقول لهم الحق تهديدا لهم وتيئيسا من أنهم لن يصلوا إلى النيل من رسول الله : اعملوا على قدر استطاعتكم من التمكن ، أو أثبتوا على ما أنتم عليه من الخلاف والمناهضة ، لماذا ؟ ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم عامل أيضاً : فلن يكون ثباتكم مانعاً لى من العمل ؛ أنتم تعملون وأنا أعمل ، أنتم تعملون على طاقاتكم ، وأنا أعمل على طاقاتى الإيمانية ومدد ربى الأعلى من الطاقة .

﴿ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

« فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار » و « له » تعطى دلالة إلى أن الإيمان ستكون عاقبة الدار لصالحه ؛ لأن الآخرين لن تكون لهم بل عليهم ، وساعة ترى « اللام » اعرف أن الأمر لهم لا عليهم . فكأن الظالمين إن تنلهم عاقبة فهى ليست لهم ، وإنما عاقبتهم عليهم ، ولن يفلح الظالمون .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ

﴿ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ
فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى
اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ
سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

وهنا رجوع إلى كلام عن الذين يناهضون منهج الله.

و«ذرأ» أى خلق ، وبث ، وبشر ، والحرث يراد به الزرع ، وسمى الزرع حرثاً ؛ لأنه يأتى بالحرث ، و«الأنعام» وهى تتمثل فى ثمانية أزواج فى آية تأتى بعد ذلك ، وهى الإبل ، والبقر ، والضأن والمعز .

«وجعلوا لله مماذرأ من الحرث والأنعام نصيباً»أى مماخلق ، وهم قد حرثوا فقط ؛ لأن الذى يزرع هو الله ، فسبحانه الذى أعطى للبذرة قوتها لتربى لها جذراً ، وتمتص عناصر الغذاء من الأرض ، وهو الذى جاء بعناصر الأرض كلها، وهو الذى جعل البذرة تتوجه إلى العناصر الصالحة لها ، وتترك غير صالح بقانون« الذى خلق فسوّى والذى قدّر فهدى» . والذى صنعه الله الحرث وفى الأنعام تتخيلون أنكم تتصرفون فيه على رغم أنه هو الذى ذرأ وخلق . إنه- سبحانه- هو المتصرف .

هم جعلوا لله مماذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا : هذا لله «بزعمهم»وهذا لشركائنا ، أى جاءوا بالحرث وقسموه قسمين . وقالوا : هذا لله ، وهذا للأصنام . وكذلك قسموا الأنعام وجعلوامنها قسماً لله ، وقسماً لهم ، ألم يكن من العدل أن يقسم الذى خلق بدلاً من هذا الزعم منكم لأنكم أخذتم غير حقكم ، وياليتكم أنصفتم فنرضى بقسمتكم فيذهب القسم الذى لله للصدقات على الفقراء ، والذى للشركاء يذهب للأصنام وللسدنة الحجاب عليها والخادمين والذين يضربون لكم الأقداح ، وياليتكم عرفتم العدل فى القسمة بل أن ماصنعتموه هوقسمة ضيزى جائرة وظالمة ، لماذا؟ . تأتى الإجابة من الحق :

﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ.. (١٣٦) ﴾ [سورة الأنعام]

أنتم قسمتم وقلتم: هذا لله وهذا لشركائنا. فاصدقوا مع أنفسكم فى هذه النسبة، لكنهم كانوا يسرقون حق الله، وكان لهم فى الهلاك تقسيم معين، وفى الزيادة لهم تقسيم آخر. فإذا ما جاءت آفة للزرع وأهلكته أخذوا ما خصصوه لله وأعطوه للشركاء وقالوا: إن ربنا غنى! وبرغم أنكم قسمتم ولكنكم لم توفوا بالقسمة التى فرضتموها ورضيتم بها.

وكذلك فى الأنعام يقدرون عدداً من الأنعام ويقولون: هذه لله، وتلك للشركاء، فإن ماتت بهيمة من المنذور لله لم يعوضوها، وإن ماتت بهيمة منذورة للأصنام يعوضوها ويأخذوا بدلاً منها من القسم الذى نذروه لله. وأيضاً لنفترض أن عيناً جارية ساحت فيها المياه لتروى الزرع المقسوم لله، فيأخذوا منها للأرض المزروعة للأصنام. إذن هى قسمة ضيزى من البداية، وليتهم وفوا بهذه القسمة، وهكذا ساء حكمهم وفسد.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) ﴾

وأيضاً نقلوا تلك القسمة الضيزى إلى مايتلعق بذواتهم فى الإنجاب والإنسال ؛ فشركاؤهم زينوا لهم قتل أولادهم، و«التزيين» هو إدخال عنصر التحسين على